مجلة تدبر

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد الثامن - السنة الرابعة. رجب ١٤٤١هـ، الموافق مارس ٢٠٢٠م

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]

موضوعات العدد:

- المقاصد القرآنية في سورة ق
  الباحث: أ/ حماد بن محمد يوسف
- بلاغة أسلوب الحوار القرآني: حوار الأنبياء مع أبنائهم نموذجًا
  الباحثة: د/ بدرية بنت سعيد معيض الوادعي
- الاستفهام الإلجائي في الحوار القرآني: دراسة تأصيلية تطبيقية
  الباحث: د/ حامد بن راضي بن مصلح الروقي
- بناء سورة الحاقة على تعظيم الله عز وجل ومقتضى العبودية
  الباحث: د/ توفيق علي زنادي
- تقرير عن رسالة علمية بعنوان: تدبر القرآن الكريم
  الباحث: د/ عبد اللطيف بن عبد الله الهويجري
- تقرير عن مصحف هدايات القرآن الكريم
- تقرير عن المؤتمر القرآني الدولي الثاني في هدايات القرآن الكريم

مجلة تدبر

البحث الثاني

بلاغة أسلوب الحوار القرآني

حوار الأنبياء مع أبنائهم نموذجًا

الباحثة: د / بدرية بنت سعيد معيض الوادعي

أستاذ التفسير المساعد بجامعة نجران

۞ حصلت على الماجستير من كلية/ الآداب جامعة/ الأميرة نوره بنت عبد الرحمن

بأطروحة: تفسير القرآن من خلال موسوعة (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري جمعًا ودراسة.

۞ حصلت على الدكتوراه من كلية / أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود بأطروحة: تحقيق مخطوط (تعليق مبارك في تفسير القرآن العظيم) للإمام القاضي أحمدبن أبي بكر البُلقيني من المقدمة إلى نهاية سورة النحل.

أهم النتاج العلمي:

۞ محبطات العمل من خلال سورة محمد ﷺ دراسة موضوعية.

۞ المال والإنسان في القرآن، (دراسة بلاغية).

۞ الزيادات التي وردت في القرآن في حق المؤمنين وحق الكافرين (دراسة موضوعية).

۞ البريد الإلكتروني: elafsw@gmail.com

مجلة تدبر

مستخلص البحث

تناول هذا البحث الحوار من حيث تعريفه وسمات الحوار القرآني، ثم أربعة نماذج من حوارات الأنبياء ومع أبنائهم، ودراستها دراسة بلاغية مقرونة بفوائد تربوية، واستخدمت فيه المنهج الوصفي والاستنباطي.

ويهدف البحث إلى استخراج الأسرار البلاغية مع بعض الفوائد التربوية في تلك الحوارات.

وكان من أهم نتائجه:

الحوار ليس سمة للمجتمع البشري فقط، بل قد كان حاضرًا في خطاب الله تعالى مع الملائكة، وحتى مع إبليس أخزاه الله، ومع المخلوقات كذلك.

وأوصت الدراسة:

١- بالاهتمام باستخراج الأسرار والدلالات البلاغية في القرآن الكريم؛ لإبراز روعة وعظمة التعبير القرآني.

٢- عدم التكلف في استخراج السر البلاغي، فالقرآن لا يحتاج إلى التكلف؛ لأن القرآن غني بألفاظه الموجزة، ومعانيه المعجزة.

الكلمات المفتاحية: الحوار، القرآن، الأنبياء، الأبناء، البلاغة، أسلوب.

مجلة تدبر

The Eloquence of the Qur'anic Style of Dialogue: the Prophets' Dialogue with their Children as a Model

Prepared by

Dr. Badria Saeed Mo'eedh Al-Wadi'ee

Assistant Professor of Tafsir at the University of Najraan

Email: elafsw@gmail.com

Summary:

This research deals with dialogue in terms of its definition and the features of the Qur'anic dialogue.

Then it examines four models of the dialogues of the prophets **(Peace be upon them)** with their children, from a rhetorical perspective, coupled with the educative benefits that could be drawn from them. This piece of research

uses the descriptive and deductive approaches.

The research aims to extract the rhetorical secrets as well as some educative benefits from those dialogues.

Main Findings:

1.Dialogue is not only a distinguishing characteristic of human society, but it is also present in the speech of Allah **(Exalted be He)** with the angels, Satan himself **(May Allah curse him)** and all other creatures.

Recommendations of the Study:

1.More emphasis should be placed on the extraction of the secrets and the rhetorical connotations in the Noble Qur'an with the view to highlighting the magnificence and loftiness of the Qur'anic expressions.

2. The rhetoric Qur'anic secrets should not be concluded in a sophisticated manner, as the Noble Qur'an is not in need of sophistication or mannersism; rather, it is rich in its concise expressions and inimitable meanings.

Keywords: Dialogue, Quran, Prophets, Children, Eloquence, Style.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان ما صبح بدا وما ليل سجى صلاةً وسلامًا سرمديًّا أبدًا،

أما بعد:

فالقصص القرآني معين دفاق، ومورد أخَّاذ، تستسقى منه الحكم، وتستنتج منه العبر.

ومن بديع جمال القصص القرآني مايحوي من صور الحوار المتبادلة التي تدل على أن الحوار سمة فاعلة من سمات المجتمع البشري، تُفهم به حاجات النفوس، ويكشف عن ماينتجه العقل من آداب وفكر؛ ولذلك حوى القرآن أنواعًا عديدة من الحوارات، ومنها: حوارات الأنبياء عليهم السلام مع أبنائهم، حيث تتجلى فيها عظمة الهدف، وروعة التصوير، وبلاغة الأسلوب، حيث كانت بيانًا للهداية القرآنية في مجال التربية، وهي وسيلة إصلاح للأسرة والمجتمع.

مما قادني إلى أن أجعلها مجالًا لبحثي ودراستي بذكر بعض النماذج من الحوارات بين الأنبياء وأبنائهم في القرآن، ودراستها دراسة بلاغية مع استخراج التطبيقات والفوائد التي تنفع المربي في حواره مع أبنائه وطلابه، دراسة شرفت بشرف متعلقها ومصدرها، وهو القرآن الكريم.

وقد سلكت في دراسة الموضوع المنهج الوصفي وتم توظيفه في تعيين بعض الحوارات ودراستها دراسة بلاغية أسلوبية، ثم المنهج الاستنباطي في استخراج الدلالات البلاغية والتربوية في الآيات الكريمة.

✍ **وقد تناول البحث: مقدمة، وتمهيدًا، وأربعة مباحث.**

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والمنهج المستخدم في دراستها.

التمهيد: وفيه تعريف الحوار وأهميته، وسمات الحوار القرآني.

المبحث الأول: حوار نوح عليه السلام مع ابنه.

المبحث الثاني: حوار إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام.

المبحث الثالث: حوار يعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام.

المبحث الرابع: حوار يعقوب عليه السلام مع أبنائه بعد فقد يوسف وأخيه.

التمهيد

◈ تعريف الحوار وأهميته:

اهتم الإسلام بالحوار اهتمامًا كبيرًا؛ إذ إن طبيعة الإنسان تميل بفطرتها إلى الحوار، ولم لا! وهو حاجة إنسانية مهمة يتواصل فيها الإنسان مع غيره لنقل آرائه، وأفكاره، وتجاربه، وقيمه، بالإضافة إلى أنه إحدى طرق التربية المهمة في الحياة؛ لأنه وسيلة للوصول لليقين بعدما أعلن كل طرف وجهة نظره، وكشف ما لديه مما خفي على الآخر.

ويتميز الحوار عامة أنه يتيح الفرصة لسبر أغوار النفوس، وتعزيز إيمانها، وترسيخ عقيدتها، وتصحيح مفاهيمها، وتثبيت قيمها، وتعديل سلوكها، ومن ثَم يشعر المحاور بالاطمئنان.

ومما لا شك فإن الإسلام يهدف إلى الرقي بالمجتمع المسلم إلى معالي الأمور، وسمو الأخلاق، وعلو الآداب، وينأى بأفراده عن كل خلق سيء أو عملٍ شائن، ويريد أن يكون المجتمع مجتمع محبة وألفة تربط بين عناصره: الأخوة، والمودة.

ويكتسب الحوار أهميته من كونه وسيلة للتآلف والتعاون، وبديلا عن سوء الفهم والتقوقع والفرقة والصراع، وبذلك يصبح الحوار ضرورة طالما تفاعل الناس وتدافعوا، واختلفت انتماءاتهم ومصالحهم، وأفكارهم ومشاعرهم تجاه الأشياء والأشخاص من حولهم[1].

ويشير التعريف اللغوي للجذر (حَورَ) إلى دلالاتٍ عدة، منها: الرجوع عن

(١) الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه، للدكتورة منى إبراهيم اللبودي (٢٠).

الشيء وإلى الشيء، وهي دلالة تقترب من دلالة لفظة (حوار) التي تدل على التحادث والتجاوب القولي، فالمحاورة: المجاوبة، واستحارة: استنطقه[١].

والمحاورة: حسن الحوار، ومنها أيضًا: كلَّمتُه فما ردَّ على محورةٍ، أي: كلام[٢].

فهي تعطي في طياتها دلالة خلقية تتعلق بكيفية الحوار وأدبه، وهذا صحيح، فالحوار يستلزم طرفين أو أكثر، ولا يتم إلا في جو أدبي يتيح السمع والقول بين المتحاورين، وتتسع دلالة الحوار معجميا، فتكون بمعنى: جادله[٣].

والجدال يعطي فرصة للقول والمراجعة بين المتحاورين، وإن كان يهدف للإفحام للخصم غالبًا.

والمحاورة: مراجعة المنطق، والكلام في المخاطبة، وهم يتحاورون، أي: يتراجعون الكلام[٤].

وأيضًا: ما أحار جوابا، أي: ما رجع[٥]، وكذلك: تحاوروا تراجعوا الكلام بينهم[٦]، ومنه حديث النبي ﷺ: «**نعوذ بالله من الحور بعد الكور**»[٧].

وأيضًا: من معاني الجذر اللغوي (حور) ما يفيد الحيرة من حار (بدلالة) لم يهتد لسبيله، فهو حيران، وحائر، وهي حيراء[٨].

(١) لسان العرب، لابن منظور (١/ ٧٥٠).

(٢) أساس البلاغة، للزمخشري (٩٨).

(٣) المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية (١/ ٢١٢).

(٤) المرجع السابق.

(٥) لسان العرب، لابن منظور (١/ ٧٥٠). وجاء في دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي، (٣/ ٦٤٧): "تحاور الناس: تراجعوا الكلام وتداولوه".

(٦) أساس البلاغة، للزمخشري (٩٨).

(٧) صحيح مسلم كتاب الحج، باب ٥٧ الحديث ٣٣٤٠.

(٨) المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية (١/ ٢١٢).

فهو يعطي دلالة مناقضة، فليس كل حوار يأتي بالجديد، فقد يزيد المرء ضلالًا.

فالحوار: حديث يدور بين اثنين على الأقل، ويتناول شتى الموضوعات...، ويفترض فيه الإبانة عن المواقف والكشف عن خبايا النفس[١].

أما الحوار القرآني فقد عرفه النحلاوي[٢] بأنه: كل نداء أو خطاب أو سؤال يوجهه القرآن، أو يحكيه موجهًا إلى منادى أو مخاطب أو مخاطبين حول أمر مهم بقصد توجيههم، أو توجيه اهتمامهم إلى هذا الأمر، أو تحقيق هدف معين، أو القيام بسلوك فكري أو اعتقادي أو اجتماعي أو أخلاقي أو تعبدي[٣].

ويؤخذ على هذا التعريف: إدخاله لكل نداء في القرآن في الحوار.

وعلى هذا يكون تعريف الحوار القرآني في هذا البحث: بأنه تجاوب ومراجعة بين طرفين أو أكثر -أيًّا كان عددهم- حول موضوع معين يهم كلا الطرفين أو أحدهما بوسيلة من وسائل الإتصال المناسبة لأطراف الحوار وظروفه بهدف الإقناع، أو تقريب وجهات النظر.

فالحوار القرآني أسلوب فريد في قوة مبانيه، وعمق آثاره التربوية والنفسية لم يسبق إليه، وحسبه أنه مظهر من مظاهر تجلي العناية الإلهية بالإنسان؛ ليعتز بإنسانيته، ويستمر في مناجاة ربه، وتفهم آياته وتشريعه.

◈ وللحوار القرآني سمات منها:

١ - الإنصاف والموضوعية: يتسم الحوار القرآني بإنصافه المحاور الآخر -وإن كان معارضًا-، ويمكن استنباط هذه السمة من الحوار الذي

(١) القاموس المحيط، للفيروز أبادي (٤)

(٢) عبد الرحمن النحلاوي، ولد في دمشق، استاذ في دار المعلمين بجامعة دمشق، واستاذ مساعد في الكليات العلمية بالرياض وجامعة الإمام، باحث ومشرف ومدقق، له مؤلفات عديدة.

(٣) التربية بالحوار، (١٤).

دار بين النبي ﷺ والمشركين في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .....﴾ [سبأ: ٢٤].

٢- الإستمالة والرفق في الخطاب: يتسم المنهج القرآني بالترفق واللين مع المخاطبين، ومحاولة استمالتهم أيًّا كانوا حتى وإن كانوا مشركين؛ ليستميل قلوبهم نحو موضوع الحوار وعرض قضيته واحتمال وقوع أحد الطرفين في الخطأ، ومنه قوله تعالى: في سورة سبأ ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ .....﴾ [سبأ:٢٤].

٣- التنوع: أسلوب الحوار في القرآن غني بالقوة والفخامة وسمو الألفاظ، ويتلون حسب مقتضى الحال وداعية المقام والغرض الذي من أجله دار الحوار، فمن أمثلته: الحوارات المفصلة التي دارت بين موسى عليه السلام وشعيب، وإما الحوارات التي تركت بعض جوانبها، مثل: بعض الحوارات الواردة في سورة يوسف عليه السلام.

٤- الإضمار: وهو إخفاء لبعض جوانب الحوار، وطي لشيء من تفاصيله، ففي قصة رحلات إخوة يوسف طويت المسافات المكانية والزمنية دون أن يجد السامع انقطاعًا في أحداثها.

٥- الحكاية: يعتمد أسلوب الحوار في القرآن -في الغالب- على حكاية القول: (قال، وقالوا) أو الأمر به: (قل، وقولوا). فهذا الأسلوب يرسم خطوط الحوار، ويرفع شيئًا من ملابسات الموقف قد تحصل.

٦- مخاطبة العقل والعاطفة معًا: فهو يخاطب العقل؛ ليقنعه، ولا يهمل العاطفة؛ ليكون هناك توازن أدعى للتقبل، ومنه حوار إبراهيم مع أبيه حيث وازن بين النظرة العقلية للأمر وأشبعها بالعاطفة الدفاقة التي تحضر عند الخوف على الوالدين من أي أذى.

المبحث الأول

حوار نوح عليه السلام مع ابنه

يصور لنا القرآن الكريم مشهدًا من مشاهد الطبيعةِ التي تظهر فيها الأبوةُ عاطفةً ملهوفةً حانيةً قَلِقَةً على ابنٍ يُخْشَى عليهِ مِن الهلاكِ بسببِ عقلٍ ضَالٍ، وفِكرٍ مُظلِمٍ مُدْلَهِمٍ.

◈ يتضحُ ذلكَ مِنْ خلال موقفِ نوحٍ مع وَلَدِه في القرآن:

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤١ - ٤٣].

لما انتهى نوح عليه السلام من صنع السفينة وإعدادها إعدادا صالحًا لركوب الفئة المؤمنة معه، وجعلها وسيلة لنجاتهِ ومن صحبهُ أَمَرَهُمْ بالركوب في السفينة، فقالَ: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أول ما يروعنا في هذه الآية التصوير البديع في قوله: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ فالسفينة لا يُرْكَبْ عليها، وإنمَّا يُسْتَقَرُّ بها، ولِذا عُدْيّ ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ بـ (في)، فقد شَبَّهَ الله ﷻ السفينة بالمطيَّةِ التي تركب، ثم حذف المشبه به، وذُكِرَ شيئًا مِن لوازمهِ، (الركوب): على سبيل الاستعارة المكنية، وهذه الاستعارة توحي بشدة التمكن في السفينة وتمام الاستقرار بها.

ثم يأتي تعريف المسند إليه في قوله: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ بضمير الخطاب (واو الجماعة)؛ لأن المقام مقام خطاب من نوح عليه السلام للفئة المؤمنةِ.

وآثر التعبير القرآني في قولهِ ﴿وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ بمادة (رسي) على مادة (قَرَّ)؛ لأنَّ (الرُسْو) هو ثبات الشيء ثباتًا غير جامدٍ، أي: أنه بعد ثباته يمكن أن يتحركَ، وهذا يناسب ثبات السفينةِ، أمَّا (قَرَّ) فهي تقال على الشيء إذا ثبت ثبوتًا جامدًا، وأصلُه من القر، وهو: البرد، وهو يقتضي السكون، والحر يقتضي الحركة[1]؛ لذا كان التعبير بمادة (رسي) أنسب وأدقَّ.

والتعبير بلفظ الجلالة في قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾؛ لإدخال الأنس والطمأنينة في قلوب المؤمنين فَهُمْ في أمس الحاجة إلى ذلك في تلك اللحظة.

ولما كان المقام مقام بيانٍ -أنه لولا مغفرته تعالى ورحمته بهؤلاء القوم ما نجي منهم أحد- جاء في ختام الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وقد أكَّدَ الكلام بـ: ﴿إِنَّ﴾ و(لام الابتداء) تحقيقًا لأتباعهِ بأَنَّ الله رحمهم بالإنجاءِ مِن الغَرق[2]

ولفظ الربوبية في قوله: ﴿رَبِّي﴾ يشعر بمعنى التربية والحنو والرأفة، وهذا التعبير أنسب للحالة التي كان عليها نوح عليه السلام والمؤمنون معه.

وجاء ﴿لَغَفُورٞ﴾ على صيغة (فعول) التي هي من صيغ المبالغة، وذلك للإشعار بأن مغفرة الله واسعة ليس لها مثيل، فالذنوب التي لا تحصى ولا تُعد هو الغافر لها والمتجاوز عنها كذلك رحمته واسعة شاملة تعم الخلق، وقد أشعر بهذا المعنى التعبير بصيغةِ (فعيل) ﴿رَّحِيمٞ﴾ التي هي من صيغ المبالغة أيضًا.

(١) مفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (٣٩٧).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٢/ ٧٤).

وقدم لفظ ﴿لَغَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ وهذا التقديم أولى؛ لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة تطلب قبل الغنيمة.

ولم يقع في القرآن تقديم لفظ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ إلا في موضعٍ واحدٍ من القرآن، وهو في قولهِ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١، ٢]. فَقَدَّمَ في هذه الآيةِ لفظَ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ إما بالفضل والكمال، وإما بالطبع حيث إنَّ (الرحمةَ) تشمل أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخص بعضَهم، والعموم بالطبع قبل الخصوص[1].

ثم يأتي تصوير المشهد الهائل الذي تبرز فيه العاطفة الجيَّاشة الحانية من الأب للولد، فالأب هنا تنساب منه العاطفة رِقةً وقلقًا على ابنٍ عَاقٍّ، وكان هذا في وقت جريان السفينة ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

يبدو أنَّ ذلك الجريان كان عظيمًا هائلًا في وسط الأمواج الكثيرة المرتفعة، والسامع يتشوق لسماع مثل ذلك الخبر كما أنهُ يحتاج إلي تقوية الخبر وتمكينه؛ لذا قُدِمَّ المسندُ إليه ﴿وَهِىَ﴾ على المسند ﴿تَجْرِى﴾، ولأن المقام مقام غَيْبَةٍ عرَّف المسند إليهِ ﴿وَهِىَ﴾ بضمير الغيبة، وفي التعبير بضمير الغيبة ﴿وَهِىَ﴾ من التعظيم الكثير والتفخيم.

(١) من أسرار التعبير في القرآن صفاء الكلمة، لـ.د./ عبد الفتاح لاشين (٢٢٧).

أما العَظَمَةُ: فتأتي من أنَّ هذا الضمير يعبر عن السفينة التي ينجو بها نوح عليه السلام ومن معه.

وأما الفخامة: فتأتي مِن أنَّ الإضمار فيه إبهام، فالشيء إذا كان مبهما كانت النفس تتطلع إلي فهمهِ وتتشوق إلى معرفتهِ، وهذه ميزة الإضمار في الآية.

وجاء التعبير عن جريان السفينة بصيغة المضارع ﴿تَجْرِي﴾، وذلك تصويرًا لحالها في جريها بهم كأنها حاضرة أمام القارئ أو السامع[١].

وَآثَرَ التعبيرُ القرآنيُّ مادة (جري) على (مَرَّ) حتى تصور ما كانت عليه السفينة من سرعة بالغةٍ في الحركة، فمادة (جري) تعني (مَرَّ بسرعةٍ)[٢].

وأما مادة (مَرّ) فتعني: (سار وتحرك)[٣] فقط، فلا تصور ما كانت عليه السفينة من سرعةٍ، ولذلك كانت المادة (جري) أنسب في التعبير من كلمة (مَرّ)؛ لنهوضها بالمعنى المراد.

وينقلنا السياق إلى التصوير البديع حيث تشبيه الموج بالجبال إذ تجري هذه السفينة في موجٍ مرتفع يشبه الجبال في ضخامتها وارتفاعها، وقد دَلَّ التشبيه على عِظَمِ الأمرِ من حال الماء وتطبيقهِ على الأرضِ ومن ملابسةِ الرياح[٤].

والقرآن حين يشبه محسوسًا بمحسوس ليحرصَ أحيانا أن يرسمِ الصورةِ كما تحس بها النفسُ... فهذه الجبال تصور للعين هذه الأمواجَ الضخمةَ كما تصور لنا ما يحس به ركابُ السفينةِ[٥].

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٨).

(٢) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، لمحمد إسماعيل إبراهيم (١٠٠).

(٣) المرجع السابق، (٤٩٢).

(٤) الجمان في تشبيهات القرآن، لابن ناقيا البغدادي (١٢٦).

(٥) التعبير الفني في القرآن الكريم، لبكري شيخ أمين (١٩٨).

وتلاحظ دِقَّةَ التعبير القرآنيِّ في اختيارِ كلمةِ ﴿مَوۡجٖ﴾ بدلًا من (ماء)؛ لأنَّ الموج أعلى من سطحِ الماء في تتابع مَعَ هُبوبِ الريَّاحِ[1] لذا كان التعبير القرآنِيِّ أدق وأنسب في المعنى المراد.

وتنكير ﴿مَوۡجٖ﴾ يشعر بأنَّ الموج الذي يشبه الجبال كان عظيمًا هائلًا فلا يقوى عليه أحد، ولا ينجو منه مخلوق.

وفي وسط هذا الهول يمد نوح عليه السلام بصرهُ فيجد من الذين تخلَّفُوا عنه ابنه فَلَذَة كَبِدِهِ، فيتوجَهُ إليهِ بالنداءِ في قولهِ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وعرف المسند إليهِ بالعلمية في قولِهِ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ﴾، وذلك لإحضارهِ وتعيينهِ له بإسم يختصُ بهِ في ذهنِ السامعِ.

ويستشعر من النداء في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ العطف الشديد والشفقةَ المشوبة بالخوف والقلق، عَلَّهُ يستجيب بهذهِ الطريقةِ، فهو يريد من هذا النداءِ إيمان ابنهِ وهدايته وركوبه معه السفينة.

لأن استعمال النداء بألفاظ البنوة والأبوة تفتح مغاليق النفس، وتشرع أبواب القبول للتوجيهات، ولذلك حتى مع علم نوح بكفر ابنه طيلة مدة الدعوة إلا أنه ما يزال يناديه بـ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ لعل هذا النداء في وقت الغوث والفزع يتغلغل في حنايا قلبه فيلين ويستجيب.

وأداة النداء (يا) وما تشتمل عليه من مد تتعاون مع باقي التراكيب في رسم الحسرة والألم اللذين ألَمَّا بنوح عليه السلام، فالمد الذي يوجد بحرف النداء يساعد في تصوير صرخات نوح عليه السلام النفسية وأناته الطويلة حزنًا على ابنه.

(١) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، لمحمد إسماعيل إبراهيم (٥٠٩).

ويلاحظ أن نوحًا عليه السلام قالَ ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ ولم يقلْ (يا ولدي) وذلك لأنه يخاطبُ ولده الذكر، فكلمةُ (ابن) لا تطلق إلا على الذكر، أمَّا (الولد) فيطلق على الابن والابنةِ معًا، مما يشهد بدقة التعبير القرآني.

وَكُنِّيَ بقولهِ ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ عن رغبة نوح القوية في إيمان ابنه وعدم انغماسه في الكفر والضلال، فهو حث وتحضيض من نوحٍ عليه السلام لابنهِ بالإيمانِ بطريقةٍ غير مباشرةٍ، فالكنايةُ هنا عن صفةِ الإيمان، لأنه يقول بعد ذلك: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهذه الكناية تصور قلق الأب الحنون وشدة خوفه على ابنه الضال كما توضح حرصه الشديد على إيمانه وهدايته.

فاستخدام التعابير غير المباشرة، والألفاظ المستعارة عند التوجيه والطلب للإنقياد كما عبر نوح بطلب ابنه الركوب معهم وليس الدخول في الإسلام لعله يجد منه استجابة في وقت أحاط الغرق بأهل الأرض إلا من ركب معه، لأنه يعلم أن في ثنايا الركوب في السفينة نجاة في الدنيا والآخرة.

ثم يأتي حذف المفعول من قوله: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ والتقدير: (اركب معنا السفينةَ)؛ لتَعينه ولِضِيقِ المقام لأن بين نجاة من نجا، وهلاك من هلك لحظات خاطفة، ولأن الحرص على المعيَّةِ والنَصَّ عليها أَهمُ من تعيينِ المفعولِ في هذا المقام[1].

والمراد من النهي في قوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ النصح والإرشاد إلى ما فيه الخير لابنه، وهذا النهي يمتزج بقلقِ أَبٍ ملهوفٍ، والحسرةُ على ابنٍ لعِبتْ بأفكارِهِ الأهواءُ.

(١) الحوار في القرآن الكريم، لمحمد إبراهيم عبد العزيز (٤٢).

فتوضيح المربي أسباب التوجيه الذي يعطيه حتى يتحقق معرفة دواعي ذلك الأمر، فقد يسري في النفس بالطاعة والإنقياد، ولذلك أوضح نوح عليه السلام السبب من طلبه ابنه الركوب معه، وهو أن عدم ركوبه سيحيط به ويجعله في عداد الكافرين الذين سيغرقهم الموج.

وفي الآية التالية: يأتي رد الابن المغرور ذلك الابن العاق، يقول تعالى: ﴿قَالَ سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾.

ويستشعر من قول الابن هذا تهكُّمٌ من قولِ أَبيهِ وَفِعلِهِ ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا ...﴾ الآيةُ.

وفصل قوله: ﴿قَالَ سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ عما قبله لما بينهما من شبه كمال الاتصال حيث أن القول السابق أثار سؤال تقديره: (ماذا قال الولد عقب طلب أبيه له بالركوب معه) فقيل: ﴿قَالَ سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾، وبلاغة هذا الضرب تكمن في أن الجملة الأولى تثير في النفس خواطر وهواتف، فتأتي الثانية مجيبة عن هذه الخوالج، وكأن بذرة الجملة الثانية مضمرة في الجملة الأولى، وهكذا يتوالد الكلام وتتناسل الجمل، ثم إن في طي هذه الهواتف وترك الإفصاح عنها والتعبير الجهير بها ضرب من وجازة الكلام واختصاره ودمجه واكتنازه، ولو ذهبت تبسط ما حقه البسط لرأيت وراء كل جملة من هاتيك الضروب جملة قد تطول أو تقصر، ولكنها أضمرت في تلك الجملة، واكتفي في الإبانة عنها باللمحة والإيماضة السريعة التي انعكست في تحريك السامع واستثارة حسه[1].

(١) دلالات التراكيب، لـ د/ محمد محمد أبو موسى (٣١٢).

والتعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ لاستحضار صورة الإيواء والاعتصام بالجبل فهو يحاول إقناع أبيه.

وتنكير ﴿جَبَلٍ﴾ يوحي بعظم هذا الجبل وشدة ارتفاعه، فالجبل الذي يبحث عنه الولد هو الجبل الشاهق شديد الارتفاع الذي لا تطوله الماء.

وأما التعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ فللإشعار باستمرار الاعتصام بالجبل في وقت الغرق، فالابن يعتقد أنه سيعتصم بالجبل فترة كبيرة حتى ينتهي الطوفان.

ومع هذا العناد تبرز عاطفة الأبوةِ العاقلةِ المدركةِ لفداحةِ الأمرِ وهولِهِ، فيرسلُ الأبُ نداءهُ الأخيرَ الواعي لابنهِ الذي لا يدركُ خطرَ الأمرِ، فيقول له: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا جبالَ ولا مخابئَ ولا عاصمَ من أمرِ اللهِ إلا مَنْ أرادَ اللهُ أَنْ يرحمهُ ويعصِمَهُ. وهذا من الإسنادِ المجازي لعلاقةِ المفعوليةِ بدليلِ قولهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ أي: لا معصومَ إلا مَن رَحِمَه اللهُ.

ويلاحظ في هذا القول أيضًا: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ القصر البديع إِذْ أنهُ قصر العصمةَ على مَنْ يرحمه الله في هذا اليوم بطريق النفي والاستثناء، وقدْ أفادَ هذا القصرُ تأكيدَ مضمونِ الجُملةِ معَ الإيجازِ، وهذا القصر يوضح احتياج الناس الشديد إلى رحمة الله ورأفته في هذا اليوم العصيب.

وَكُنِيَ بهذا القولِ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ عن عِصمةِ المؤمنين الموجودين في السفينةِ ونجاتهم، وعدم عصمة غيرهم ونجاتهم.

وكان مقتضى الظاهر في الآية أن يكون الكلام هكذا: (لا عاصم من أمر الله إلا اللهُ) لكنه قال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

وفي العُدولِ إلى الموصولِ... زيادةُ تفخيمٍ وتحقيقٌ لرحمتِهِ، وأَنَّ رحمتهُ هي المعتصم لا إلى الجبلِ وهو أقوى الوجوهِ[1].

والمراد من قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا عاصم اليوم من الماءِ. وعبَّرَ بذلك تفخيمًا لِشأن ذلك الماءِ، وتهويلًا لأمرِهِ وتنبيهًا لابنهِ على خطئهِ في تسميتهِ، وتوهمهِ أنه كسائرِ المياهِ التي يتخلصُ منها بالهربِ إلى بعضِ المهاربِ المعهودةِ.

فقرن ذكر المصالح والمفاسد بالتوجيه، حيث قد يكون جهل الابن وقلة إدراكه لحجم الخطر وسوء العواقب حائلًا دون الاستجابة للتوجيه، ولذلك عقب نوحٌ عليه السلام على جواب ابنه ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ موضحًا أن الأمر أكبر مما تتوقع ويحيط به خيالك وفكرك.

وفصلُ قوله: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ﴾، عن جملةِ ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ﴾؛ لأنَّ الجملةَ الثانيةَ: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ﴾ وقعت جوابًا لسؤال أثارتهُ الجملةُ الأولي فكأنهُ قِيلَ: أهذا يمكنُ؟ فكان الجوابُ ﴿لَا عَاصِمَ﴾، وفصل بينهما لشبه كمال الاتصال.

وحيلولةُ الموجِ في آخرِ المحاورةِ تشيرُ إلى سرعةِ فيضانِ الماءِ في حينِ المحاورةِ[2].

وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ إشارةٌ موجزةٌ إيجازًا بديعًا لأنها تشير لغرقِهِ وغرق من معه من الفئةِ الكافرةِ، وبلاغةُ هذا الإيجازِ تتضحُ في سرعة قضاء الله بهلاكِ الهالكين.

(١) حاشية الشهاب علي تفسيرِ البيضاوي، للشهاب الخفاجي (٥/ ١٠٠).
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٢/ ٧٧).

وإيثارُ ﴿كَانَ﴾ في التعبيرِ على (صار) للمبالغةِ في كونهِ من المغرقِين.

وبنهايـة الحـوار تنتهي حيـاة الابن علـى الرغم من حـرص الأب على بقائهـا، وبهذا تنتهـي قصة الابن العـاق المغرور العنيد، وبقـي من بعده الأب المكلوم الحزين الذي مافتئ يسأل الله فيه ويثني الطلب بالعفو عنه حتى جاءه النهي من الله أن يسأله ماليس له به علم على طريقة الجاهلين.

المبحث الثاني

حوار إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام

يقول تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ٢٠٠-٢١٠].

في هذه الآيات يصور لنا القرآن الكريم حوار إبراهيم عليه السلام مع ابنه تصويرًا بديعًا، ذلك الحوار الذي يصور لنا الأب الشيخ الهَرِم الذي طالما انتظر ابنه، وطال هذا الانتظار حتى دعا ربه أن يهب له ولدًا صالحًا، فأجاب ربه هذه الدعوة، ثم بعد ذلك يستأذنه في ذبحه، والابن يرد عليه ردًّا إيمانيًا هادئًا، رد المؤمن الورع المطمئن ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، وليس هذا فحسب، وإنما يعده بأن يكون صابرًا، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمتن على الأب الحنون المتعلق بابنه، والابن الطائع البار؛ بأن أنزل عليهما الفداء الذي يخلص الأب من معصية الرب، وذبح الولد.

وتبدأ هذه الآيات الكريمات بدعاء أبي الأنبياء الذي فيه يناجي ربه بأن يرزقه ولدًا.

يقول تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾، ويلاحظ أن إبراهيم عليه السلام لم يذكر حرف النداء مع ﴿ رَبِّ ﴾ في قوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي... ﴾ الآية، ولكنه أتى به مجردًا، وهذا يعبر عن شعور إبراهيم بقربه من ربه، وقربه تعالى منه عليه السلام، وأنه لا توجد عوائق بينهما ولا وسائط.

وعبَّر عن هذا بلفظ: (الهبة)؛ ليشعرنا بأن هذا سيكون تفضلًا وتكرُّمًا من قِبلِ رب العالمين، وهذا المعنى ليس موجودًا في لفظ: (ارزقني).

والأمر في قوله: ﴿هَبْ﴾ مراد به الدعاء، فإبراهيم عليه السلام توجه إلى ربه بالدعاء متضرعًا أن يرزقه ولدًا، وليس أي ولد، وإنما يرجو أن يكون ولدًا صالحًا بارًّا، ولِهذا قال: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وجاء النص القرآني باسم الفاعل مجموعًا؛ للإشعار بأن الصلاح المراد هو: الصلاح الثابت الدائم، وليس هذا فحسب، بل إنّه عليه السلام أراد أن يكون ابنه مشتهرًا بالصلاح معروفًا به، كل هذا فُهِمَ من التعبير باسم الفاعل المجموع مما يشهد بدقة التعبير القرآني.

وعلى الفور بشَّره تعالى بِغُلامٍ سيكون حليمًا في المستقبل.

يقول تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، فالله عز وجل يخبره في هذه الآية بأنه سيرزقُه ولدًا سيكون حليمًا في كِبَرِهِ فكأنه بُشِّرَ ببقاءِ ذلك الولد؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك، فكانت البشرى من الملائكة[1].

وأطلق لفظ ﴿حَلِيمٍ﴾ وهو لا يكون كذلك بمجرد مولده، وإنما تحدث له هذه الصفة المثلى بعد ذلك بسنين[2]. على سبيل المجاز المرسل باعتبار ما سيكون، وفي هذا المجاز مزيد من البشارة، وتعجيل بالمسرة.

وحينما جاء الولد الحبيب الذي سيكون حليمًا، وبدأ يسعى معه في بعض الأمور، أوحى الله إليهِ في منامهِ بِسِعَّةِ صدرٍ وصَبرٍ.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٧/ ٥٥٤٣).

(٢) البيان بين عبد القاهر والسكاكي، لـ د/ علي البدري (١٤٧). وانظر: علم البيان، لـ د/ عبد الفتاح لاشين (١٤٦).

يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾. وجاء أمر الله ﷻ لإبراهيم عليه السلام بذبح ابنه في صورة رؤيا إكرامًا لإبراهيم عليه السلام حتي لا ينزعج بأمر اليقظة ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ وهذا جواب لسؤال نشأ من قوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ ﴾، فكأنه قيل: ماذا حدث بعد بلوغ السعي؟ فقيل: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ ﴾، وفصل بين الجملتين لما بينهما من شبه كمال الاتصال.

وفي قوله: ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ خرج النداء إلى الشفقة والترحُم.

وعبر بالفعل المضارع ﴿ أَرَىٰ ﴾ بدلًا من الفعل الماضي (رأيت)؛ لاستحضار الصورة الماضية، فإبراهيم عليه السلام أراد أن يستحضر الحالة الماضية لولده؛ ليجعله وكأنه يشاهدها ويرى الرؤية معه. وفي هذا من استجلاب الطاعة والتسليم من الولد ما لا يخفى.

والمراد من الأمر في قوله: ﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ الاستشارة والترغيب في الطاعة؛ لأن هذه الطاعة طاعة لله تعالى قبل أن تكون طاعة للأب.

ويأتي الجواب غير المتوقع من غلام في هذه السن، لكن بالتأمل نجده متوقعًا من غلام بشّر الله بحلمه في المستقبل، غلام ابن نبي وسيكون نبيًّا، ومن نسله خاتم الأنبياء والمرسلين، والجواب هو: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾. ويلاحظ أن الغلام قد نادى أباه مع أنه قريب منه بحرف النداء (يا)، وذلك للإشعار ببعد المنزلة والمكانة توقيرًا له وتعظيمًا، فلم تتأثر مكانته عليه السلام عند ولده بأمر الذبح الذي أخبره به.

وقد طبع قوله: ﴿ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾ بطابع الإيجاز بحذف فاعل ﴿ تُؤۡمَرُ ﴾ والجار والمجرور به، وهذا يوضح مدى سرعة امتثال الغلام إسماعيل لأمر ربهِ الكريم وأبيه الحنون المحزون.

والأمر في قوله: ﴿افْعَلْ﴾ مراد منه التسليم والتفويض، فالغلام قد استسلم لأمر ربه ورغبة أبيه في تنفيذ أمر الله ﷻ، فالقدوة في التربية أسرع سبيلًا وأقصر طريقًا لامتثال الأبناء للتوجيه، فامتثال إبراهيم عليه السلام لأمر الله وسرعة تنفيذه جعل إسماعيل عليه السلام يمتثل أمره ويحث والده على تنفيذ الأمر.

وعدل عن أن يقول: (اذبحني) إلى ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ للجمع بين الفعل وتعليله، أي: أذنت لك أن تذبحني؛ لأن الله أمرك بذلك، ففيه تصديق لأبيه، وتصديق لأمر الله فيه[1].

وأوثر التعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿مَاذَا تَرَى﴾؛ للدلالة على أن الأمر متعلق به مستمرٌّ إلى حين الامتثال به[2].

ثم يخبر الولد أباه بأنه ليس جازعًا من الأمر ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، أي: أنه سيكون بعد فعلته من المعروفين بالصبر مبالغًا في صبره، ولِذا أوثر أن يقال: ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل مجموعًا بدلًا من (صابر) اسم الفاعل مفردًا.

وحينئذٍ استسلم إبراهيم عليه السلام لأمر رب الأنام واستعد لذبحِ ابنه، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾.

والقرآن عبر عن هذا الاستسلام بطريق الإيجاز، فالكلام محذوف منه المتعلق وجواب ﴿لَمَّا﴾؛ لأن الكلام على تقدير فلما أسلما لأمر الله، وتلَّه للجبين كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به المقال من استبشارهما، وشكرهما لله على ما أنعم عليهما[3].

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٣/ ١٥٢).

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٤/ ٤١٦).

(٣) ينظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، للشهاب الخفاجي بتصرف (٧/ ٢٨١)، وينظر: الفوائد المشوق إلي علوم القرآن وعلم البيان، لابن النقيب (١٠٢).

وفي لحظة تنفيذ الأمر ولم يبق إلا أن تزهق الروح، ويسيل الدم، يفاجئه ربه بندائه العظيم ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ليكافأ على امتثاله لأمر ربه وتصديقه رؤيته التصديق المخلص الذي جعله يبذل في سبيل الله أي شيءٍ حتى ولو كان هذا الشيء هو فلذة كبدهِ أو نفسه.

وفي قوله: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ اسناد هذا النداء إلى نفسه تعالى، وهذا يوحي بمدى رضا الله وإعجابه بطاعة إبراهيم عليه السلام له تعالى، وطاعة ولده له.

ويلاحظ نداء الله تعالى لإبراهيم بأداة النداء (يا) دلالة على عِظَمِ الأمر وتفخيمًا لشأنهِ، وليسرع المنادى بالامتثال والإجابة.

وأكدَ تعالى تصديق إبراهيم عليه السلام، وتنفيذه الأمر بقوله: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ﴾ حيث اقترن الفعل الماضي بـ﴿ قَدْ ﴾ وهذا يشعر بالمبالغة في تحقيق التصديق؛ إذ إن التعبير بالفعل الماضي يفيد غالبًا تحقق الوقوع وحتميته.

وأكد النص القرآني المعنى بـ(إن)، واسمية الجملة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ حتى لا يتبادر إلى الذهن أدنى شك في أن الله عز وجل يجازي المحسنين.

والتعبير باسم الإشارةِ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ للإشعار بفخامة هذا الجزاء، وتصويره بأنه جزاءٌ كبيرٌ عظيمٌ لا يقدر قدره ولا يدرك كنهه ولا مثيل له ولا حد؛ إذ إن هذا الجزاء هو جزاء الصبر على أمر من الصعوبة بمكان، فلا يخفى على أحد أن ذبح ولدٍ وحيدٍ مجلل وعصيب.

ثم يقرر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ما حدث لإبراهيم عليه السلام وابنه ما هو إلا بلاء عظيم فمن الصعب على النفس جرح الولد وإيجاعه، وليس ذبحه، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾.

وجاء النص القرآني بـ﴿ إِنَّ ﴾ واسمية الجملة؛ للإشعار بأن هذا الأمر لا شك فيه ولا مراء، فما من شك أن هذا الأمر بلاء كبير لا يقوى عليه أحد.

وأكد هذا المعنى بوصف البلاء بـ﴿ الْمُبِينُ ﴾، فالبلاء وضحٌ والألم كبير

ويتضح القصر في الآية حيث قصر ما حدث لإبراهيم عليه السلام على كونه بلاء مبين قصرًا حقيقيًّا، والطريق الذي استخدم في هذا القصر قليل الاستعمال، وهو: ضمير الفصل.

وقد ساعد هذا الطريق على الإشعار بعظم الأمر وفخامة القصة.

والتعبير بالفعل الماضي يشعر بتحقق الفداء، ووقوعه بشكل مؤكد، وأن هذا الأمر كتب منذ الأزل.

وتنكير ﴿ بِذِبْحٍ ﴾ يشعر بأن هذا الفداء كان بكبشٍ كبيرٍ بالغ العِظَم في الحَجم، وأكدَ هذا المعنى بكلمة ﴿ عَظِيمٍ ﴾، ثم يشير الله ﷻ إلى منزلة إبراهيم عليه السلام، وخلود ذكرِهِ، وبقائِهِ إلى يوم الدين في كتابه الباقي؛ إذ تختم الآيات بقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾.

فقد نكر المسند إليه ﴿ سَلَامٌ ﴾ للإشعار بعظمة هذا السلام وفخامته عظمة وفخامة لا يدرك كنهها إلا الله.

وكررَّ ذلك الجزاء مبالغةً في الثناء، ثم علَّلَ بأنه كان من الراسخين في الإيمان مع الإيقان والاطمئنان[1].

هذه قصة إبراهيم عليه السلام، وهو أبٌ، وقد أبرزها القرآن الكريم في شكلِ قصة في سورة الصافات الكريمة حتى يستوعبها السامع.

(١) صفوة التفاسير، لمحمد علي الصابوني (٣/ ٣٧)

والقصة وهي إحدى الجوانب الخصبة في الأدب العربي كانت بعض الخصائص البيانية في أسلوبِ القرآن الكريمِ إِلَّا أنه نهجَ فِيها نهجًا فريدًا، فهو يكررها بعباراتٍ متنوعةٍ، وألوانٍ مختلفةٍ؛ كقِصةِ موسى، وإبراهيم، وبعض الأنبياء عليهم السلام، وقد يجئُ بها متكاملةً في موضِعٍ واحدٍ كَقِصَةِ يُوسُفَ عليه السلام، وأهل الكهف[1].

(١) من البعد النفسي للتذوق البلاغي لأسلوب القرآن الكريم (٢٠).

المبحث الثالث

حوار يعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام

وخوفه عليه من حسد إخوته

يقول تعالى في سورة يوسف: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٤-٦].

هذه الآيات الثلاث تمثل قَصِة يوسف رؤياه على أبيه وهو صغير، وطلب أبيه منه أن يمتنع من قص تلك الرؤيا على إخوته، خوفًا من الحسد والكيد له، وتعبير تلك الرؤيا له، وما فيها من البشارة وحسن العاقبة، والتنبيه على عِظمِ شأنهِ عند المولى ﷻ وعند الناسِ[1].

يقول تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾.

بدأ هذا الموقف بالكناية عن الوقت الذي قُصَّتْ فيه الرؤيا، وهو قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ فكلمة ﴿ إِذْ ﴾ مع الفعل الماضي ﴿ قَالَ ﴾ إشارة إلى الوقت الذي قُص فيه الرؤيا، وهو الماضي حيث تستعمل ﴿ إِذْ ﴾ للماضي غالبًا، وليست شرطية[2].

(١) تفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي (١٢/ ١١٤)

(٢) لمسات بيانية، للدكتور فاضل السامرائي (١٦٥)، تفسير آية: (٨٦: الأعراف)

ويلاحظ تعريف المسند إليه ﴿يُوسُفُ﴾ بالعلمية، وذلك لأن القرآن يقصد بهذا إحضاره بعينه في ذهن السامع أو القارئ ابتداءً باسم مختص به، حتى يحدده ولا يبعد الذهن عنه.

وأُثرت (يا) في النداء في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ مع أنَّ أباه كان حاضرٌ قريبٌ منه، وذلك للإشعار بأهمية الخبر الملقى، فينزل المخاطب الحاضر منزلة الغائب المطلوب حضوره، وهو كناية عن الاهتمام[1].

ويدل على إنصات يعقوب واهتمامه بكلام ابنه أنه يحكي له الأمر حكاية المستريح الهادئ، ويقص عليه كامل الرؤيا دون ضجر من الوالد أو استعجال.

وأشار الإمام الألوسي عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ إلى أن المراد من النداء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ التوقير والتعظيم، لذلك قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ولم يقل: (يا أبي)، وهذا مفهوم من إبدال الياء تاءً؛ لأنها تدل على المبالغة والتعظيم له[2].

والرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام كانت محققةً مؤكدةً؛ إذ جاء النص القرآني مؤكدًا بأكثر من مؤكد في قوله: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾، فقد أكد النص بالجملة الاسمية، و(إِنَّ) للإشعار بأن هذه الرؤيا وقعت وقوعًا حقيقيًّا لا شك فيه ولا مراء.

وتكرار فعل ﴿رَأَيۡتُ﴾ تفخيمًا لطول الكلام[3]، وإشارة إلى ضخامة الأمر وعظمته، وهذا الإطناب كان من العوامل التي ساعدت في تأكيد أمر الرؤيا فيوسف عليه السلام بعقل الطفل الصغير رأى ضرورة لتكرار فعل الرؤيا،

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٠/ ٢٠٧).
(٢) روح المعاني، للألوسي (١٢/ ١٧٨).
(٣) التبيان في إعراب القرآن، للعكبري (٢/ ٧٢٢).

وكأنه توقع عليه السلام من أبيه استغرابًا، أو إنكارًا لما رآه منامًا، ولا بدع في هذا التوقع من يوسف إن صحَّ، إِذْ كان يومئذٍ في ميعة الصِبَا.

وإيثار التعبير بالفعل الماضي ﴿رَأَيْتُ﴾ يؤازر التكرار في الإشعار بتحقق رؤياه لِما في الفعل الماضي من تحقق الوقوع.

وقدم قوله: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ وأَخَّرَ كُلًّا من ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، ولم يندرجا في عموم الكواكب؛ لإظهار مزيتهما وشرفهما[1].

كما يلاحظ تقديم الشمس على القمر في قوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، وذلك إِمَّا لكونها: أعظم جرمًا، وأسطع نورًا، وأكثر نفعًا من القمر. وإِمَّا لكونها أعلى مكانًا منه، وكون فلكها أبسط من فلكهِ[2].

ويلاحظ أن: وضع (الكواكب) في خانة، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ في خانة أخرى، كان على قدر رائع من البلاغة للدلالة على أن والدته سوف تتوقف عن الحمل، وقد حصل، وأن زوجة أبيه وأم إخوته سوف تكون من الهالكين قبل زوجها وقبل أبنائها، ولو لم يكن قد حصل لما رأينا الحديث عنها في الرحلة قد كان صفرًا[3].

ويتضح التصوير في قوله: ﴿سَاجِدِينَ﴾ حيث شبهت الكواكب والشمس والقمر بأُناس يعقلون، ثم حذف المشبه به، وذكر شيء من لوازمه، وهو: السجود على سبيل الاستعارة المكنية. وهذه الاستعارة تصور الطاعة العمياء والانقياد التام من الكواكب والشمس والقمر ليوسف عليه السلام وذلها له، مما يوحي بفضل الله العظيم عليه.

(١) فتح القدير، للشوكاني (٣/ ٢٥)، وينظر: روح المعاني، للألوسي (١٢/ ١٧٩).

(٢) المرجع السابق (١٢/ ١٧٨).

(٣) في التذوق الجمالي لسورة يوسف دراسة نقدية ابداعية، لمحمد علي أبو حمدة (٥٣).

ووصف الكواكب والشمس والقمر بجمع العاقل ﴿سَٰجِدِينَ﴾؛ لأنه جعلهم كالإنس في السجود والطواعية فجعلهم كالإنس في الجمع والتذكير[1].

وقد وصف فعل غير العاقل بوصف العاقل، وهو السجود؛ للدلالة على أنها إلهام لا مجرد أضغاث أحلام[2].

✧ **والكواكب والشمس أجرام سماوية فلا يأتي منها ما يأتي من العقلاء، وقد أجراها القرآن في هذه الآية مجري العقلاء في موضعين:**

✓ **أولهما:** أعاد في قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ حيث أعاد عليها الضمير الذي يعاد به على العقلاء، وكان حق التعبير أن يقال: (رأيتها)، وفي هذا فائدة تكرار الجمل والعبارات التي يحتاجها المحاور في حواره، وتظهر أهميته في التنبيه للاستيقاظ إذا طال الكلام وخشيت نسيان الأول، أعيد ثانية تطرية له وتجديدًا لعهده[3].

✓ **ثانيهما:** في قوله ﴿سَٰجِدِينَ﴾ حيث أجري عليه الوصف الذي من حقه أن يجري على العقلاء، وكان حق التعبير أن يقال: (ساجدة)، لا ﴿سَٰجِدِينَ﴾.

ولتوجيه ذلك طريقان:

أولهما -ذكره المفسرون- وهو: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء -وهو السجود، وإن كان سجود كل شي بحسبه ليس سجود هذه المخلوقات وضع جباهها على الأرض[4]- أجري عليها حكمهم، كأنها عاقلة، وهذا كثير

(١) ينظر: معاني القرآن، للأخفش (٢/ ٥٨٧).
(٢) تفسير المنير، للزحيلي (١١/ ٢٠٦).
(٣) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٣/ ١٠٤).
(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢١/ ٢٨٤).

شائع في كلامهم أن يلابس الشيء من بعض الوجوه، فيعطي حكمًا من أحكامه إظهارًا لأثر الملابسة والمقاربة، وهذا توجيه حسن مقبول.

ثانيهما: أن تكون رموزًا وكنايات عن عاقلين حيث صرح المفسرون بأن المراد من: (الكواكب) إخوته، (والشمس والقمر): أبواه - لما كانت كذلك - عوملت معاملتهم فأجري عليها ما جري عليهما.

والفرق بين التوجيهين: أن الأول عام يمكن أن ينتفع به في غير هذا الموضوع، والثاني خاص به دون سواه[1].

يظهر من هذا أن يوسف عليه السلام كان غلامًا ليس كالغلمان، ولا صبيًّا كالصِبيان؛ لأن أكثر ما يُتَخَيَّلُ في رؤيا الصبيّ للكواكب أن يراها حواليه أو بجواره. أَمَّا أن يراها ساجدةً فهذا هو العجب مما يشعر بأن هذا الصبيَّ له في المستقبل شأن عظيم. ذلك الأمر جعل أباه يحذره من أن يقص تلك الرؤيا على إخوته حتى لا يكيدوا له.

وفي الآية التالية: يحذر يعقوب عليه السلام ولده يوسف من قص رؤياه على إخوته خوفًا من كيدهم له؛ إذ إن الشيطان كيده واضح مؤثر.

يقول تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥].

ويلاحظ أن يعقوب عليه السلام قد نادى ابنه يوسف بلفظ البنوة مصحوبًا بحرف النداء (يا) في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ مع وجوده معه في المكان ليحفز الذهن لاستقبال النصح، والتنبيه على أن ما سيأتي مهم، وللإشارة إلى بعد منزلة يوسف عليه السلام تنزيلًا لبعد المنزلة منزلة بعد المكان.

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، لـ د/ عبد العظيم المطعني (١/ ٤٧٩).

وقد نادى يعقوب عليه السلام ولده بصيغة التصغير فقال ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾، وذلك لأن المقام مقام شفقة وعطف وحنو.

وأُثـر في التعبير صيغة النهي ﴿ لَا تَقۡصُصۡ ﴾، وذلك للإشـعار بالقلق الزائد من الأب على الابن، فزيادة المبنى أسهمت في زيادة في المعنى (التحذير) مما يوحي بحرص ذلك الأب على نجاة ولده.

وإضافة الرؤيا إلى ضمير يوسف عليه السلام في قوله: ﴿ رُءۡيَاكَ ﴾، للإشعار بأن هذه الرؤيا عظيمة في مغزاها ومؤداها، وكأنها بإضافتها هذه اكتسـبت الشـرف والعظمة من المضاف إليه.

وتنكيـر ﴿كَيۡدٗا﴾ للتعظيم والتهويل، فيعقـوب عليه السلام يعلم أن ذلك الكيد سـيكون عظيمًـا هائلًا لذا نكـر لفظ ﴿كَيۡدٗا﴾، فقـال: ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ ﴾، ولم يقل: فيكيدوا لك الكيد، وفي هذا مزيد من النصح والتحذير ليوسف عليه السلام.

وآثر التعبير القرآني لفظ (الكيد) على لفظ (المكر) مع أنهما متقاربان في المعنى، فالمكر مثل الكيد في أنه لا يكون إلا مع تدبر وفكر إلا أن الكيد أقوى من المكر، والكيد اسم لإيقاع المكروه بالغير قهرًا سواء علِمَ أو لا.

وقـد أوقع أبناء يعقوب عليه السلام بأخيهـم المكروه دون علمه في ما بعد؛ لذا كان لفظ (الكيد) أنسب في التعبير عن المعنى المراد.

ثم يعلل القرآن على لسـان يعقوب التحذيـر بجملة ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾، وهذه الجملة واقعة استئنافًا بيانيًّا؛ إذ إن الجملة السابقة عليها قد أثارت سؤالا، تقديره: (لماذا يقع منهم هذا الكيد؟)، فقيل: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ ... ﴾، ففصلت هذه الجملة عمَّا قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال.

ولما كان يوسف متعجبًا مما أخبره به أبوه كان كمن ينكر الأمر؛ لذا تزاحمت المؤكدات على هذه الجملة ﴿إِنَّ﴾، وإسمية الجملة تنزيلًا ليوسف منزلة المنكر في أمر عداوة الشيطان للإنسان.

وتعريف المسند إليه ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ يوحي بأن يوسف يعلم تلك العداوة، وأنها هي العداوة المعهودة من الشيطان لابن آدم؛ إذ أن (ال) في قوله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ للعهد، وهذا يشعر بأن يوسف ليس صبيًّا كالصبيان العادية، فلا يوجد صبي يخاطب من أبيه كما خُوطِبَ يوسف عليه السلام.

وقرن التعليل بالتوجيه مناسب لسرعة الإمتثال من الأبناء عند توجيههم، فعلل يعقوب عليه السلام سبب توقعه وجود مكيدة ليوسف بسبب وسوسة الشيطان التي لا تفارق ابن آدم إلا بمنة الله عليه.

وتقديم الجار والمجرور في قوله ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾ على ﴿عَدُوّٞ﴾ يوحي بعداوة الشيطان القديمة، وملاصقته لبني آدم، فلا يفتر أبدًا عن إغوائهم وإضلالهم ولا يمل، وفي ذلك منتهى التحذير منه.

وتنكير المسند ﴿عَدُوّٞ﴾ يوحي بأن هذه العداوة من ذلك الشيطان كثيرة هائلة تستطيع أن تحرض أخًا على الكيد لأخيه، والإضرار به.

وهذا يدل على أن الأبناء معرضين لوقوع الحسد والكيد فيما بينهم مما علت مرتبتهم في الفضل، وحسن التربية، ولذلك لابد للوالدين من التنبه لهذا، وإخماد كل شرارات العداوة التي قد تكون.

ثم ينتقل يعقوب عليه السلام من تحذير ابنه إلى تبشيره بتفضيله -كتفضيل أبويه من قبل، وإتمام النعمة عليه- وأن هذا سيكون على وفق علم الله وحكمته.

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦].

صدَّر يعقوب عليه السلام قوله بكلمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى العناية الربانية المدلول عليها من الرؤيا، وكذلك جاءت لتعقد التشبيه بين الاختيارين، فالمشبه هو اختيار ربه له، واصطفاؤه على البشر، والمشبه به هو الاجتباء البعيد الذي شوهد آثاره من خلال سجود تلك الكواكب له، ووجه الشبه هو الاصطفاء والاختيار العجيب.

وذكرت ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ هنا لعقد التشبيه لما في هذا الأمر من عجب وغرابة، وهذا شأن استعمالها في التشبيه، والتشبيه يوحي بعلو منزلة يوسف عليه السلام عند ربه وارتفاع شأنه.

والمراد من التشبيه بيان المضاهاة..... أي: كما سخرت لك تلك الأجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة[1].

وفي قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ تقديم للمفعول (كاف الخطاب) على الفاعل ﴿رَبُّكَ﴾؛ لأن الغرض هنا -والله أعلم- بيان من وقع عليه فعل الاجتباء.

فالاجتباء واقع على سيدنا يوسف عليه السلام، وبيان هذا كان أهم عند يعقوب عليه السلام ولذا قُدِّمَ.

وآثر التعبير القرآني لفظ ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ بدلًا من (يختارك) أو (يفضلك)، لأن ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ مشتق من جبيت الشيء إذا خلصته لنفسك[2]، واجتباء الله

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ٨٠).
(٢) لسان العرب، لابن منظور، مادة: "ج-ب-ى".

العبد تخصيصه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النِعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء، وبعض ممن يقاربهم من الصديقين والشهداء[1]، فمادة (جبى) تدور حول معاني الصفوة من الشيء، والاستخلاص، والاختصاص الحاصلة للمصطفى بدون أي سعيٍ منه، وهذه المعاني غالبًا ما تكون من الله لعبده، وهذه الدلالات والايحاءات لا يتحملها لفظ (يختار) أو (يفضل) لذا كان لفظ ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ أنسب للمقام.

وتعريف المسند إليه بالإضافة في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾؛ وذلك للإشعار بتشريف وتعظيم يوسف عليه السلام فقد أضفت الإضافة على يوسف عليه السلام عظمة وفخامة.

والغرض من الخبر في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ إظهار الغبطة والسرور، وإدخال البشرى على قلب يوسف عليه السلام، وإعلامه بالخير المتوقع له.

ورتب التعليم على الاجتباء؛ لأنه يكون الاختيار ثم التعليم، ذلك التعليم الذي يجعله عظيم الشأن، وليس هذا فحسب، بل إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُتِم نعمته ومنَّته عليه.

وآثر التعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛ وذلك لاستحضار مشهد التعلم واستشعار هذه المنة، وكأنها مشاهدة في لحظة الإخبار، وفي هذا من البشرى ما لا يخفى.

ويتضح التشبيه في قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ حيث شبَّه إتمام نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومنته على يوسف عليه السلام بإتمام نعمة الله على آبائه من قبل، والأداة التي عقدت الصلة بين المشبه والمشبه به (الكاف)، ووجه الشبه إتمام النعمة وكمالها وتحققها للطرفين.

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (٨٧)، وانظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية (١/ ١٠٦).

وفي هذا التشبيه تذكير بفضل الله على يوسف وآبائه عليهم السلام من قبله، وإدخال الأنس والطمأنينة في قلب يوسف عليه السلام بأن مصيره سيكون نفس مصير آبائه من الفضل والنعمة.

وقوله: ﴿أَبَوَيْكَ﴾ كناية عن الأجداد، وهذه الكناية تصور الصلاح والبركة الذين يمتدان إلى أجداد يوسف عليه السلام.

وفي التعبير عنهما بالأب مع كونهما أبا جده وأبا أبيه إشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام، وتذكير معنى الولد سر أبيه لِيُطَمئِنَ قلبهُ بما أُخبِرَ به[1]؛ ولأن الجد أب في استعمال العرب.

وفي قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ إيجاز بحذف المضاف إليه، والتقدير: من قبل هذا الوقت الذي أنت فيه، أو من قبلك. وهذا الإيجاز يكشف عما في نفس يعقوب من رغبة قوية في تبليغ يوسف عليه السلام بالبشرى بأقصى سرعة ممكنة حتى ولو كان عن طريق حذف كلمة أو حتى حرف.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وقع تذييلًا يقرر مضمون الجملة السابقة ويؤكده ويحققه؛ لأن كل ما سبق يحدث على وفق مراد الله وحكمته، وهو من باب الإطناب.

وجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ استئناف بياني، فقد أثارت الجملة السابقة عليها سؤال تقديره: كيف يتم الله نعمته على يوسف عليه السلام، فقيل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ فالفصل لشبه كمال الاتصال.

.....

(١) روح المعاني، للألوسي (١٢/ ١٨٨).

المبحث الرابع

حوار يعقوب عليه السلام مع أبنائه وعتابه لهم حينما ضيعوا أخاهم بنيامين

يقول تعالى في سورة يوسف: ﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨١-٨٧].

هذه الآيات الكريمات توضح الحوار الذي حدث بين يعقوب عليه السلام وأبنائه حول السرقةِ التي اتهم بها أخوهم، فأخوهم الذي أرسله معهم أبوهم، ووعدوه بحفظه وقد حُجِزَ منهم.

فكان هذا الأمرُ صعبًا عليهم، واستيأسوا، فأشار كبيرهم بأنْ يرجعوا إلى أبيهم، ويخبروه بأن ابنه سرق، وأُخِذَ بما سرق، وما قلنا إلا ما علمناه، وما توقعنا أن يحدثَ، لأن هذا غيبٌ، وما كُنَّا حافظين له.

يقول تعالى: ﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴾.

ويتضح الإيجاز في الآية، وقد تحقق الإيجاز بالحذفِ، والتقدير: ارجعوا

إلى أبيكم وأخبروه بالقصةِ[1].

والمراد من الأمر في قوله: ﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ-فَقُولُواْ ﴾ الالتماسُ، فأخوهم الأكبر يلتمس منهم أن يلقوا إلى أبيهم ذلك الخبر؛ لأنه لا يستطيع مواجهته.

ويلاحظ النداء بـ(يا)، وإضافة الأب إلى ضمير المتكلمين (نا) في قوله: ﴿ يَٰٓأَبَانَآ ﴾؛ وذلك لتذكير أبيهم بما يوجدُ بينهم وبينه مِنْ وشيجةِ دَمٍّ وآصِرةِ نَسَبٍ، لأنهم يعلمون أن ذلك الخبر قد يُنسيهُ ما بينه وبينهم، والخبر هو: عودتهم من غير أخاهم بنيامين وسرقته. وهذا ليس بالأمرِ الهينِ على أبٍ قد حُرِمَ من ابنٍ له من قبلُ.

ويأتي تعريف المسند إليه ﴿ ٱبۡنَكَ ﴾ بالإضافة ليؤكد المعنى السابق: التذكير بوشيجة الدم وآصرة النسب تعظيمًا لأبيهم وإجلالًا له، فهم يستعظمون سرقةَ أخيهم ويستنكرونها، فهم يريدون أن يقولوا أن أخيهم هذا لم يكن ابن أي أحدٍ، وإنَّما هو ابن نبي جليل، وقد رباه على الأخلاقِ والصلاحِ.

وقيل: في تعليل قولهم: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ ﴾، ولم يقولوا (أخانا)؛ لأنه ليس شقيقًا لهم، أو لِكَثرةِ مَعَزَّةِ أبيهم له.

وقيل: أن الحسد لم يبق في قلوبهم شيئًا من الأخوة، فهو من التعريض بتبرئة أنفسهم من صنيعه[2].

وقوله: ﴿ سَرَقَ ﴾ على الإيجازِ، والتقديرُ: إنَّ ابنك سرق في قولِ الملكِ وأصحابِهِ[3].

(١) البحر المحيط، لأبي حيان (٦/ ٣١٣).

(٢) أورده الاستاذ الدكتور عبد الفتاح خضر في مدارسة بملتقى أهل التفسير ٢٠/ ١٢/ ١٤٢٧.

(٣) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٩/ ١٩٣)، ولا داعي لهذا التقدير لأنهم ذكروا ماظهر لهم، وهو توضيح أن سبب فقده هو أنه سجن بسبب السرقة حتى لايتهمهم بأنهم تسببوا في إيذائه.

وهذا الحذف يشعر بأن أخوة يوسف غير مقتنعين بسرقة أخيهم، فهم يعلمون جيدًا بأن تلك السرقة مزعومة، وأن أخاهم بريء من تلك السرقة. كما يكشف هذا الإيجاز عن رغبتهم القوية في إيصال فكرتهم بأقصى سرعة لأبيهم حتى يفكر معهم في حلٍ لإنقاذ أخيهم من ورطته.

ويتضح القصرُ في قوله: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ حيث قصروا شهادتهم على الذي يعلمونه فقط. وهذا القصر قد جاء عن طريق النفي والاستثناء، وهو الذي يناسب المقام؛ إذ أن هذ المقام يحتاج إلى تأكيدٍ، والقصر يوحي بصدقهم فيما يقولون، وبراءتهم مما يظنه أبوهم من أنهم السبب في ضياعِ أخيهم، كما يشعر هذا القصر بأنهم لم يقطعوا بسرقة أخيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ احتراس، فهم يحترسون عمَّا يفهمه أبوهم من قطعهم بسَرِقَةِ أخيهم، وهو إِمَّا لِقَصدِ التلطفِ مع أبيهم في نِسبةِ ابنهِ إلى السرقةِ، وإِمَّا لأنهم علموا من أمانةِ أخيهم ما خالجهم الشَّكُ في وقوعِ السَرِقَةِ منهُ[1].

وتأتي الآية التي توضحُ عِلمهم بأنَّ أباهم لا يصدقهم فيما يقولون، وفيها يطلبون من أبيهم أن يسأل أهل مِصرَ بنفسِهِ، والقافلة التي كانوا فيها.

يقول تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢].

والمراد من الأمر في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ التضرع والتوسل، فهؤلاء الأبناء يتضرعون لأبيهم ويتوسلون إليه بأن يسأل أهل القرية التي كانوا فيها، ويتأكد مما قالوه له.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٣/ ٣٩).

ويمكننا القول بأن لفظ ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ به مجاز مرسل علاقته الحالية؛ إذْ أطلق المحل، وأراد الحال فيه. وهذا المجاز صور التلازم الشديد والعلاقة القوية بين القرية وأهلها بحيث يمكن التعبير بأحدهما عن الآخر.

وفي قوله: ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ مجاز بالحذفِ أيضًا، لأنّ المسئولين هنا هم أهل العِير.

وفي العدول عن الحقيقة إلى المجاز إشارة إلى ذيوعِ أمرِ السرقة واشتهارها إلى درجة أنه لو سئلت القرية والعِير -أي: الجمادات والحيوان- لنطقت بها وأجابت[1].

وجاء النص القرآني ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ مؤكدًا بإسمية الجملةِ، و(إنَّ) الداخِلة على الخبر، لأنهم يعلمون أن أباهم منكِرٌ لكلِ ما يقولون، فجاء التأكيد مطابقًا لِمُقتَضي الحالِ.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٢].

هذه الآية استئناف بياني، ولِذا فُصِلَ بينها وبين ما قبلها؛ لأنها جواب لِسؤالٍ أُثِيرَ من الجملِ التي قالوها لأبيهم. والتقدير: ماذا قال أبوهم عندما سمع منهم ذلك)؟ فقيلَ: قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا....﴾ الآية.

والتنكير في قوله: ﴿أَمْرًا﴾ يشعر بالتحقير، فأبوهم يرى أن ما فعلوه حقيرٌ، وفيهِ اتهامٌ لهم بأنهم هم الذين دبروا ذلك، كما يوحي التنكير بتكذِيبِهِ لهم، وعدمِ تصديقهم.

(١) علم البيان دراسة تحليلية لمسائلَ البيان، لبسيوني عبد الفتاح (١٥٨)، قلت وهذا:على القول بأن القافلة والعير هي مراده بعينها على رأي بعضهم

ويتضح الحذف في قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ويحتمل أن يكون حذفًا للمسند إليه، والتقدير: فأمري صبر جميل، ويحتمل حذف المسند، والتقدير: فصبر جميل أجمل، والغرض من الحذف على الاحتمالين تكثير الفائدة.

وللسيوطي رأي آخر في سرِّ الحذف، إذ يقول الظاهر أن الحذف هنا لضيق المقام(١).

وسواء أكان الحذف للمسند إليه أم للمسند فقد أفاد المعنى وأضفى عليه مبالغة.

وتعريف المسند إليه بالعلمية في قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾، وذلك للتبرُّكِ والتلذُّذِ بإسمِ اللهِ ﷻ، وطمأنة نفسه وإدخال الأنس في قلبه.

وكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ في قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ تشعر بثقة يعقوب عليه السلام القوية بربه، وتؤكد أن أبناءه سيعودون إليه معًا، وتمنع احتمال أن أحدهم هو الذي يأتي يعقوب والآخر لا يأتي لقوله تعالى: ﴿بِهِمْ﴾.

وجاء النص القرآني: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مؤكدٌ ب (إنَّ) وإسمية الجملةِ، وضمير الفصلِ، وذلك لتنزيل أبنائه منزلة مَنْ يُنكِرُ علم الله وحكمته توبيخًا لهم وتبكيتًا.

ويتضح القصر عن طريق ضمير الفصل، وتعريف المسند ب(ال) في القول السابق: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ إذ قصر العلم والحكمة على الله ﷻ، والقصر يشعر بأن هاتين الصفتين مختصتان بالله ﷻ ولا تتعداه إلى غيرِهِ.

ثم يأتي المشهدُ الذي يصورُ الأبُ المنكوب بصورةٍ حزينةٍ يبعدُ فيها عن

(١) شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، للسيوطي (٢١).

أبنائهِ، ويتفجع على يوسف عليه السلام، لأن هذا الذي حدث قد أثار أحاسيسه الكامنة، وقد كان هذا الحزن بالغًا لدرجةِ أنه ذهب بصرُهُ فتحول من مُبصِرٍ إلى أعمى.

وبين (أسفى) و(يوسف) جناس الاشتقاق، وقد أدى هذا الجناس إلى ثراء المعنى وتنبيهِ الذهنِ، كما أضفى هذا الجناس جمالًا وعذوبة رقيقة هادئة تتناسب وجو الحزن والأسى الذي يخيم على المكان.

وعطف جملةِ ﴿ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ ﴾ على جملةِ ﴿ قَالَ ﴾ لما بينهما من التوسطِ بين الكمالين لاتفاقهما في الخبريةِ لفظًا ومعنى، والفاعل فيهما واحد، وقد اشتركا في تصوير ما عليه يعقوب عليه السلام من حزن وألم.

وكنى القرآن الكريم عن ذهابِ بصرهِ وعماه بقولهِ: ﴿ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ ﴾، وهذه الكناية تصور مدى الألم والحزن الذي كم قاساه، وكمية البكاء الذي بكاه يعقوب عليه السلام بسبب فراق أبنائه.

ويأتي التصوير الاستعاري في قوله: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ حيث شبَّه قلبه المليء بالحزن على يوسف عليه السلام بالقربةِ الممتلئة بالماءِ، وشبَّهه في صبرهِ، وتركهِ الشكوى إلى غيرِ اللهِ برابطٍ ربط على فم القربة المليئةِ بالماءِ، حتى لا يخرج منها شيء، وهذا هو معنى الكَظْمِ[1] على سبيل الاستعارةِ التصريحيةِ، وهذه الاستعارة تصور مدى الحزنِ والضِيقِ في صدرِ يعقوب عليه السلام ومدى صبرهِ بحيث يجعله كالرابطِ على صَدرِهِ.

وعلى الرغم مما حدث لأبيهم من حزنٍ بالغٍ إلا أن حِقدهم منعهم من أن يخففوا عن أبيهم، بل قالوا له ما يدل على حَنقهم، وضِيقِهم من ذكره ليوسف عليه السلام.

(١) القرآن إعجازه وبلاغته، لـ د/ عبد القادر حسين (٨٤).

يقول تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]

تبدأ الآية بالقسمِ ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾، وهو على الإيجاز بحذف حرفٍ، والتقدير: تالله لا تفتأُ.

وتقدير (لا) هنا مقصود، وسوغ حذفها لزوال اللبس، إذْ لو أريد الإثبات لقال (لتفتأنَّ)، فلمَّا لم يؤكد دلَّ على إرادةِ النفي، فقُدّر حرفه[1].

لكن الدكتورة عائشة عبد الرحمن ترى: أن تقدير الحرف هنا لا معنى له؛ لأنه متى جاء السياق والمعنى واضح مستغنًا عن الحرف المحذوف، فتقديره أو تأويله فضول من القول، فهي تقول: "والذي نفهمه أنه متى أطرد الحذف فالسياق حتمًا مستغنيًا عن المحذوف، ولا وجه إذن لتقدير الحرف، وكان ذكره من الفضول أو الحشو الذي يتنزه عنه الكلام البليغ، فضلًا عن البيان المعجز".

وهذه الآية تحوي فنًّا بديعًا جميلًا، وهو المسمَّى بـ(ائتلاف اللفظ مع المعنى)[2].

إذ إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما أتي بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة لأخواتها، -فإن (التاء) أقل استعمالًا، وأبعد عن أفهام العامة، و(الباء والواو) أعرف عند الكافة، وهي أكثر دورانًا على الألسنة واستعمالًا في الكلام- أتى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها، فإن (كان) وما قاربها أعرف عند الكافة من (تفتأ)، وهم لـ(كان) وما قاربها أكثر استعمالًا منها.

(١) الإكسير في علوم التفسير، للطوفي البغدادي، (٢٢٥)

(٢) ائتلاف اللفظ مع المعنى: "هو أن تكون ألفاظ المعنى المراد متلائمة بعضها مع بعض ليس فيها لفظة نابية أو قلقة على أخواتها بحيث يمكن استبدالها"، إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمحي الدين الدرويش (٥/ ٣٧).

وكذلك لفظ (حرضًا) أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك، فاقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاوز كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخيًّا لِحُسنِ الجوار[1].

والأبناء يقصدون من قَسَمِهم هذا أن ينكروا على أبيهم تَذَكُّرِهِ المستمر ليوسف عليه السلام، وأتوا بفعل ﴿تَفْتَؤُا﴾؛ للدلالة على ذلك الاستمرار، وقد بلغ الإعجاز في هذه الآية مبلغًا عظيمًا لدرجة جعلت العلماء يتفننون في القول عنها.

فها هو أبو الهلال العسكري يقول عن هذه الآية: "تحير في فصاحته جميع البلغاء، ولا يوجد مثله في كلام البشر"[2].

وها هو عبد الكريم الخطيب يقول مبينًا الإعجاز فيها: "هل تجد نبرة تخدش أذنك، واقرأها فهل تجد حرفًا يتعثر على شفتيك أو يضطرب في لسانك، وانظر في هذه الكلمات..... واقرأها مفردة، ثم اقرأها مجتمعة (تالله، تفتأ، حرضًا) إنها من غير شكٍ ثقيلةٌ على الأذن، وعلى اللسان".

ولكنها حين أصبحت في نظم قرآني خفَّ ثقيلها ولان يابسها، وسلس جماحها، وانقاد وذل نافرها، فإذا هي عارية عرائس مجلوة تخطر في روضٍ نضيرٍ! ولكأنَّ القرآن قد تخير عن عمدٍ هذه الكلمات الثلاث، وجاء بها من أجل ثقلها هذا ليقيم فيها شاهدًا من شواهد إعجازه[3].

وحينما قالوا له قولتهم السابقة المشتملة على قَسَمِهم الذي يدل على حنقهم وحقدهم رّدَّ يعقوب عليهم بأنه يشكو حزنه وهمه إلى الله وحده، لأنه هو الذي يعلم ما بداخلِهِ.

(١) بديع القرآن، لابن أبي الإصبع المصري (٧٧، ٧٨).

(٢) الصناعتين، لأبي هلال العسكري، (١٩٦).

(٣) إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، لعبد الكريم الخطيب (٢٧١)، وإن كان لايوافق على لفظ (عمد) كون ألفاظ القرآن جاءت مقصودة بحروفها ومعانيها ومواضعها.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

ويتضح القصر في الآية حيث قصر يعقوب عليه السلام بثه وشكواه على الله قصرًا حقيقيًّا، وذكرت ﴿إِنَّمَآ﴾ دون النفي والاستثناء مثلًا، لأن شكوى يعقوب عليه السلام إلى الله وحده أمر مألوف ومأنوس في النفس ومتوقع منه عليه السلام في الظروف التي مر بها، وهذا الأصل في القصر بـ﴿إِنَّمَآ﴾، والقصر يصور احتياج يعقوب عليه السلام الشديد إلى ربه، وأنه لا يشكو أبدًا إلى غيره.

وقد ذكر بعض أهل اللغة[1] أن يوجد مماثلة بين قوله: ﴿بَثِّي﴾ ﴿وَحُزۡنِيٓ﴾

فـ﴿بَثِّي﴾ قال في معناه ابن عباس: "همّي"، وقيل: أشد الحزن[2].

وقد أعقب كلامه بقوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلموه أو يلوموه[3].

وقوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ تعريض بوقوع ما يُعْتَقَدُ أنه محال من عودة يوسف عليه السلام وأخيه.

وقد عدَّ ابن أبي الإصبع هذه الآية من الضرب الأول من الانسجام، فهو يقول: "فأنت ترى سهولة هذا النظم، وعذوبة هذه الألفاظ، وما في هذا الكلام من الانسجام مع ما فيه من التعطف في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، و﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وهو أوجز من الأول؛ ليأتي في الكلام تعطف يزيده حسنًا، وفيه زيادة خضوع وترقيق مع تمكين فاصلة الآية"[4].

(١) **المماثلة:** هي تماثل الألفاظ في المعنى مع اختلاف اللفظ. انظر: بديع القرآن، لابن أبي الأصبع المصري (١٠٧). وقد أنكرها بعض المحققين، لأن كل لفظ في القرآن له دلالته المستقلة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤/ ٣٤٨٠).

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٤/ ٤٥).

(٤) بديع القرآن، لابن أبي الأصبع المصري (١٦٦).

ثم بعد ذلك يوجه يعقوب عليه السلام أبناءه لكي يبحثوا عن أخويهم واثقين بالله ورحمته غير يائسين من روح الله؛ لأنه لا ييأس من رحمته إلا الذين يكفرون به تعالى.

فقال لهم: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وناداهم بلفظ البنوة إظهارًا للشفقةِ والحب، على الرغم مما فعلوه فيه من ضياع ولديه، ليكون أدعى في القبول والامتثال.

وهذا يثبت أن قلوب الآباء لا تزال تمتلئ بالشفقة والعطف على الأبناء مهما فعلوا أو اقترفوا.

والمراد من الأمر في قوله: ﴿ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ ﴾ التوجيه والإرشاد، فيعقوب عليه السلام يوجههم ويرشدهم إلى البحث عن أخويهم، وتلمسهما، والعودة بهما. وهذا يشعر بعدم تسليمه عليه السلام بكلامهم القديم من أن يوسف قد أكله الذئب، وأن إنكار أبنائه السابق في قوله: ﴿ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ ﴾ لم يترك عنده أثرًا، ولم يثبط إحساسه بأنهم إليه عائدون.

والمراد من النهي في قوله: ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ ﴾ بث الأمل وشعور بالثقة، فهو يرشدهم إلى الثقة بالله، وعدم اليأس من فرجه أبدًا.

ووصل جملة ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ ﴾ بجملة ﴿ فَتَحَسَّسُواْ ﴾ وذلك لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتفاقهما في الإنشائية لفظًا ومعنًى، والفاعل فيهما واحد وهو الضمير العائد إلى أبناء يعقوب عليه السلام، والجملتان تشتركان في تصوير الأمل الذي أراد يعقوب عليه السلام أن يبثه في نفوس أبنائه.

وفي هذا فائدة تربوية بأن يفسح للأولاد مجال في تصحيح إخطائهم، وكأنَّ ردهم السابق يحتاج إلى زيادة تحرٍ وتدقيق ليحصلوا المطلوب.

وواضح ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

من قصر فهو يقصر اليأس من روح الله على الكافرين قصرًا حقيقيًّا طريقه النفي والاستثناء، وفي هذا القصر تخويف وتحذير لأبنائهِ من نتيجة اليأس من رحمة الله.

وفصل بين جملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ...﴾ عمَّا قبلها لشبه كمال الاتصال؛ لأن الجملة التي قبلها قد أثارت سؤالًا تقديره: (لماذا لا تيأس؟) فقيل: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ...﴾ إلخ.

الخاتمة

❁ وفيها أهم نتائج البحث مع التوصيات والمقترحات:

١- الحوار ليس سمة للمجتمع البشري فقط، بل قد كان حاضرًا في خطاب الله تعالى مع الملائكة، وحتى مع إبليس والمخلوقات.

٢- لا تتبدل لغة الحنان والعطف من الآباء للأولاد مهما كانت الظروف والمواقف.

٣- يقوم حوار الآباء مع أولادهم على أساس حفظ كرامة الابن مهما كان تصرفه سيئًا، ويتضح من خلال حوار نوح مع ابنه الكافر الذي مازال يتحنن عليه، وينادي بنداء البنوة.

٤- القدوة مطلب للتأثير والتربية، ويتضح جليًّا من خلال النظر في توجيهات الأنبياء عليهم السلام في حواراتهم.

٥- بث الأمل بالله وحده، وإسناد الأمور كلها للخالق الواحد المتصرف يثبت أركان العقيدة الصحيحة في نفوس الأبناء كما فعل يعقوب في كل مواقف الضنك التي مر بها.

٦- الحوار من أسرع وأنجع طرق التعليم والتواصل المثمر وتغذية العقل بالفهم الصحيح لمجريات الأحداث وحقائق الأمور.

وتوصي الدراسة بـ:

١- الاهتمام باستخراج الأسرار والدلالات البلاغية في القرآن الكريم؛ لإبراز روعة وعظمة التعبير القرآني.

٢- عدم التكلف في استخراج السر البلاغي، فالقرآن لا يحتاج إلى التكلف؛ لأن القرآن غني بألفاظه الموجبة، ومعانيه المعجزة.

٣- دراسة منهج القرآن في توطيد علاقة الأولاد بالآباء من خلال توجيهات القرآن وأسرار خطابه.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. «أساس البلاغة». الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر. تحقيق: عبد الرحيم محمود، د.ط، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

٣. «أساليب البيان والصور القرآنية». د.محمد إبراهيم شادي. د.ط، دار وافي الإسلامية، ١٩٩٥.

٤. «أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجًا». د.عبد الغني محمد سعد بركة. د.ط، القاهرة: مكتبة وهبة، د. ت.

٥. «إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها». عبدالكريم الخطيب. د.ط، دار الفكر العربي ومطابع دار الكتاب العربي، ١٩٦٤.

٦. «الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ – دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن». د/ محمد الأمين الخضري. د.ط، مطبعة الحسيني الإسلامية، د. ت.

٧. «الإعجاز البياني للقرآن ومسائل بن الأزرق». د.عائشة عبدالرحمن. د.ط، دار المعارف، د.ت.

٨. «الإكسير في علوم التفسير». الطوفي البغدادي. تحقيق: د. عبد القادر حسين، د.ط، دار الأوزاعي، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

٩. «البحر المحيط». أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. د.ط، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

١٠. «البعد النفسي للتذوق البلاغي لأسلوب القرآن الكريم». أ.د. عبدالرحيم محمود زلط. د.ط، د.ن، د.ت.

١١. «البيان بين عبد القاهر والسكاكي». د.علي البدري. د.ط، دار السعادة، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

١٢. «التبيان في إعراب القرآن». للعكبري. تحقيق: علي محمد البيجاوي، د.ط، إحياء الكتب العربية، د.ت.

١٣. «التحرير والتنوير». ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور. د.ط، تونس: الدار التونسية للنشر، د.ت.

١٤. «التعبير الفني في القرآن الكريم». د. بكري شيخ أمين. د.ط، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٤م.

١٥. «الجامع لأحكام القرآن». القرطبيّ، أبو عبد الله محمد بن أحمد. د.ط، دار الشعب، د.ت.

١٦. «الجمان في تشبيهات القرآن». ابن ناقيا البغدادي. تحقيق: د. مصطفي صادق الجويني. د.ط، د.ن، د.ت.

١٧. «الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه». د/ منى إبراهيم اللبودي. ط١، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

١٨. «الحوار في القرآن الكريم خصائصه التركيبية وصوره البيانية». محمد إبراهيم عبد العزيز. د.ط، مكتبة الشروق، د.ت.

١٩. «الصناعتين». العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. تحقيق: علي محمد البجاوي. د.ط، د.ن، ١٣٧١هـ.

٢٠. «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان المنسوب خطئًا لابن القَيِّمِ الجوزية». تحقيق جماعة من العلماء. د.ط، دار الكتب العلمية، د.ت.

٢١. «القاموس المحيط». الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. ط٥، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٢٢. «الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل». الزمخشري، محمود بن عمر. د.ط، بيروت: دار المعرفة، ١٤٣٠هـ.

٢٣. «المطول في شرح تلخيص المفتاح». التفتازاني، سعد الدين التفتازاني. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. د.ط، دار الكتب العلمية، د.ت.

٢٤. «المعجم الوسيط». مجمع اللغة العربية. د.ط، د.ن، ٢٠٠٤.

٢٥. «بحث التكرار في القرآن الكريم مظاهره وأسراره». المهدي، كمال محمد. مجلة الزهراء، (٨)، ١٤١٠ - ١٩٩٠، ٢٠٢.

٢٦. «بديع القرآن». ابن أبي الإصبع المصري. تقديم وتحقيق: د. محمد حفني شرف. د.ط، مصر: دار النهضة، د.ت.

٢٧. «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار». محمد رشيد رضا. د.ط، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

٢٨. «تفسير القرآن العظيم». ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. تحقيق: سامي السلامة. د.ط، دار طيبة، د. ت.

٢٩. «تفسير المراغي». د.ط، مصر: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

٣٠. «تفسير المنير». د/ وهبه الزحيلي. د.ط، بيروت: دار الفكر، ١٤١١ هـ - ١٩٩١.م.

٣١. «حاشية الشهاب علي تفسيرِ البيضاوي». د.ط، بيروت: إحياء التراث العربي، د.ت.

٣٢. «حجة القراءات». أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد زنجلة. تحقيق: سعيد الأفغاني. د.ط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٣٣. «خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية». د. عبد العظيم المطعني. د.ط، وهبة، ١٩٩٢.

٣٤. «دلالات التراكيب دراسة بلاغية». د/ محمد محمد أبو موسى. ط٢، مكتبة وهبة، ١٤٠٨هـ.

٣٥. «دلائل الإعجاز». الجرجاني، عبد القاهر. تحقيق: الشيخ محمود شاكر. د.ط، القاهرة: دار المدني، د.ت.

٣٦. «شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان». السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن. د.ط، مصر: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

٣٧. «صحيح مسلم». مسلم بن الحجاج. تحقيق: نظر محمد الفاريابي. د.ط، دار طيبة، د.ت.

٣٨. «صفوة التفاسير». الصابوني، محمد علي. د.ط، دار الصابوني، د.ت.

٣٩. «علم البيان دراسة تحليلية لمسائلَ البيان». بسيوني عبدالفتاح فيود. د.ط، مؤسسة المختار للنشرِ والتوزيعِ ودار المعالم الثقافية الإحساء للنشرِ والتوزيعِ، ١٤١٨هـ.

٤٠. «علم البيان». د عبدالفتاح لاشين. د.ط، د. ن، ١٩٩٥م.

٤١. «في التذوق الجمالي لسورة يوسف». أبو حمدة، محمد علي. د.ط، عمان: دار البشير، ١٤٠٥ - ١٩٨٥.

٤٢. «لسان العرب». ابن منظور. تحقيق: يوسف خياط، ونديم مرعشلي، د.ط، بيروت: دار صادر، ودار لسان العرب، د.ت.

٤٣. «معاني القرآن». الأخفش. تحقيق د. عبد الأمير محمد أمين الورد. د.ط، عالم الكتب، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥.

٤٤. «معجم الألفاظ والأعلام القرآنية». د.ط، د.ن، د.ت.

٤٥. «معجم الألفاظ والعلام القرآنية». محمد إسماعيل إبراهيم. د.ط، بيروت: دار الفكر العربي، د.ت.

٤٦. «مفردات في غريب القرآن». الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل. تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني. د.ط، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

٤٧. «من أسرار التعبير في القرآن صفاء الكلمة». د./ عبد الفتاح لاشين. د.ط، الرياض: دار المريخ للنشر بالرياض ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

مجلة تدبر

فهرس الموضوعات

مستخلص البحث ٨٩

المقدِّمة ٩٣

التمهيد ٩٥

المبحث الأول: حوار نوح عليه السلام مع ابنه ٩٩

المبحث الثاني: حوار إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام ١٠٩

المبحث الثالث: حوار يعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام ١١٦

المبحث الرابع: حوار يعقوب عليه السلام مع أبنائه بعد فقد يوسف وأخيه ١٢٦

الخاتمة ١٣٧

المصادر والمراجع ١٣٩

فهرس الموضوعات ١٤٥

TADABBUR MAGAZINE

Refereed Scientific Biannual Journal specialized in the Arbitration and Publication of the Researches and Studies related to the Areas of Meditating on the Holy Qur'an

The eighth issue, Rajab 1441 AH, corresponding to March 2020, the fourth year

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]

TADABBUR MAGAZINE Index:

- **The Qur'anic Purposes of Sura Qāf**
  Hammad Mohammed Yusuf
- **The Eloquence of the Koranic Style of Dialogue: the Prophets' Dialogue with their Children as a Model**
  Dr. Badria Saeed Mo'eedh Al-Wadi'ee
- **Compulsory Question in the Koranic Dialogue: a Thorough Applied study**
  Dr. Hamid bin Radı bin Muslih Ar-Rouqi
- **Basing the Chapter of Al-Haqqah on the Glorification of Allah (Exalted be He) and the Requisites of Devotion**
  Dr. Tawfiq Ali Zabadi
- **A Report on a scientific thesis entitled "Meditating on the Noble Koran"**
  Dr. Abdullatif bin Abdullah Al-Tuwaijri
- **A Report on the Mushaf of the Spiritual Directives of the Noble Quran**
- **A Report on The Second International Quranic Conference on the Spiritual Directives of the Noble Quran**

25 SR
1658-7642